اللغة العربية بين العزة والكرامة والخذلان والمهانة

د. عمر براهم

وضعية اللغة العربية في الجزائر

ينحصر حديثنا عن اللغة العربية بصفة عامة في العهد العثماني ومرحلة الاستعمار خاصة، وذلك لاستجلاء صورة واضحة عن مكانة اللغة العربية في العهدين.

1. العهد العثماني:

يجمع الباحثون والمعنيون بالتاريخ بصفة عامة، والتعليم بصفة خاصة.. وإذا قلنا التعليم، فلغته هي اللغة العربية، وهي المعنية هنا بالدرجة الأولى، معنية في رقيها، وانتشارها في هذه الفترة، فترة العهد التركي.

وإذا لم يذكر المؤرخون معاهد عليا وجامعات بمواصفاتها على غرار ما هو موجود في أماكن أخرى خاصة في أوروبا، فالجوامع والمساجد والزوايا– في بلدنا– على جميع مستوياتها هي التي كانت تقوم بهذا الدور، ومعها الكتاتيب وهي خاصة بالمرحلة الابتدائية، يؤازرها جامع القرآن الذي كان منتشرا بكثرة في البوادي والأرياف، وهو مدرستي الأولى.

مصدر تموين الحركة العلمية هذه:

في هذه الفترة –فترة العهد التركي– فالمصدر الأساسي هو الوقف، وهو مظهر من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، برزت فيه الإرادة الخيرة للإنسان المسلم، عبر بواسطتها عن إحساسه العميق، في تآزره وتضامنه مع أفراد المجتمع الإسلامي في السعة والرخاء، وفي الشدائد والمحن المختلفة، خاصة محنة الأندلسيين في نكبتهم وتشريدهم بعدما جردوا من ممتلكاتهم ورمي بهم في البحر فكان الوقف مخففا لآلامهم، والوقف أصبح سنة اتبعها المسلمون منذ أوائل الحضارة الإسلامية، كما يذكر *الدكتور أبو القاسم سعد الله في "كتابه تاريخ

الجزائر الثقافي". الجزء الأول* تطور هذا الوقف مع مرور الزمن، وتعددت أغراضه وميادين تدخله خاصة قي العهد التركي وفي وطننا هذا، تبقى أهم ميادين تدخله الميدان الديني والثقافي بصفة عامة: العناية بالمساجد والمدارس والزوايا وغيرها، في نموها وفي تطورها وفي صيانتها، العناية بالعلماء والعلم وطلبته، وفي الواقع هذا الميدان هو أساس اهتماماته.

إدارة الوقف وتسييره:

إذا تشعبت طرق تسيير الوقف سواء كانوا أفرادا أم جماعات أم حتى طلبة في بعض الحالات، وتبقى من أهم وأبرز مؤسساته، مؤسسة سبل الخيرات، حنفية الاتجاه توافقا مع المذهب الحاكم، مذهب الأتراك. هذه المؤسسة كانت تشرف على جزء كبير من أملاك الوقف

– طبعا السلطة آنذاك، مذهبها المذهب الحنفي. غير أنه لا يمنعها الاعتناء* بالمذاهب الأخرى غير المذهب الحنفي، وإلى جانبها مؤسسة إدارة أوقاف مكة والمدينة، يشرف عليها مجلس يرأسه وكيل، يعين من طرف الحكام سواء كانوا: باشاوات أم آغات أم دايات أم غيرهم.

المؤسسات الدينية و الثقافية:

يذكر المؤرخون المراكز الدينية والعلمية بالجزائر ولكثرتها يصعب إحصاؤها ونحن هنا سنذكر بعض المدن على سبيل المثال لا الحصر، فمدينة الجزائر وحدها كانت تضم حوالي مائة 100 مسجد والبعض يذكر أنه كان بها ثلاثة عشر مسجدا كبيرا (يستنتج من هذا أن هذه المساجد الكبيرة هي التي كانت تلعب دور المعاهد العليا والجامعات.) إلى جانب هذه الجوامع والمساجد الكبرى يوجد مائة وتسعة مساجد (109) و(32) قبة، أو ضريحا، واثنتا عشرة زاوية، بل البعض يقول: إنه كان بمدينة الجزائر وحدها عند دخول الاستدمار 300 مدرسة، وتشبه العاصمة قسنطينة *في عهد صالح باي الذي اعتنى بإحصاء المساجد وترميمها. يذكر المؤرخون أنه كان بها خمسة وسبعون مسجدا (75)، ومثل مدينة قسنطينة سائر المدن الأخرى خاصة الكبيرة منها، وإذا لم نذكرها فلأن المجال لا يتسع لكثرتها فالجزائر كانت تزخر في جميع أرجائها بهذه المؤسسات التعليمية.

تتحدث المصادر عن التعليم في الجزائر وانتشاره أثناء الحقبة العثمانية حتى غطى جميع أرجاء الوطن وبعض المدن، انتشر في الأرياف والقرى وسكن قمم الجبال، وأقاصي الصحراء، دعامته الأساسية وموارده القوي هو الوقف، الذي تهافت عليه الخيرون، زودوه بأموالهم، وأوقفوا عليه أملاكهم وثرواتهم.

إذ لم يكن للدولة تدخل مباشر في ميدان التعليم، وإذا لم يشمل جهازها التنفيذي وزيرا لشؤون التعليم، ولا مديرا ولا وكيلا ولا نحو ذلك من الوظائف في الدولة كدولة، وإذا كان التعليم بصفة عامة يقوم على

مجهودات الأفراد والمؤسسات الخيرية الخاصة فغياب الدولة لم يكن بالغياب السلبي كما يتصوره البعض فقد كان أفرادها حماة لهذا الوطن وأسودا دافعوا عن هذا الدين وعن هذه الثقافة العربية الإسلامية، فقد سجل التاريخ غيرتهم وحرصهم الشديد على العقيدة الإسلامية، وعنايتهم بالعلم والعلماء، وتبرعوا بأموالهم وأوقفوها على المؤسسات الدينية والعلمية كما ذكرت، ويذكر أن أول الذين قاموا بالوقف في هذا المجال، هو خير الدين بربا روس وخادمه الذي أعتقه حيث بنى هذا الخادم جامع السفير بالقصبة بمدينة الجزائر، بناه وأوقف عليه أراضي شاسعة.

ويبدو أن هذه السنة الحسنة، سنة الوقف اتبعها الكثيرون من الباشوات، مثل: الحاج حسين مزمورطو، الذي بنى هو الآخر مسجدا، أوقف عليه أراضي ودكاكين، وحتى سوقا. وبالإضافة إلى الباشوات اتبعهم في هذه الطريقة البايات والوزراء والكتاب، وكبار الضباط.

لهذا اجتمعت للوقف قوة مالية كبيرة، ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية، والتعليمية، زيادة على مساعدة المحتاجين من الطلبة والفقراء، والنازحين من الأندلس في بداية الأمر.

موقف الأسرة من العلم:

لقد كانت الأسرة الجزائرية المسلمة حريصة كل الحرص على العلم وعلى إرسال أطفالها إلى الكتاتيب، لتعلم المبادئ الأولية للقراءة والكتابة وحفظ القرآن، وقد كان التنافس سائدا بين الأسر والأحياء والمدارس، وحتى في بعض التجمعات: كالأسواق والمناسبات المختلفة. وقد وصل هذا النوع من التنافس جيلنا.حيث كانت بعض الأسواق الأسبوعية ملتقى معلمي القرآن، وتلامذتهم موضوع النقاش بالدرجة الأولى: حفظ القرآن حفظا جيدا، مع إتقان بعض قواعد رسمه وكتابة آياته وقراءتها قراءة سليمة.

ماهي مراحل التعليم؟

كانت مراحل التعليم تنقسم إلى قسمين :إلى ابتدائي وإلى ثانوي وعال.

1. ففي التعليم الابتدائي: يتعلم التلميذ القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وحتى بعض المبادئ الأولية في الدين والفقه والحساب .

2. التعليم الثانوي والعالي:

فيدخل حفظ المتون وعلوم القرآن وعلم الفقه والتوحيد وعلم الحساب وحتى الفلسفة، والملاحظ على هذه المرحلة أن الدراسة مجانية، بل يتلقى الطالب إعانة نقدية، مع ضمان السكن والإيواء والأكل.

أما المهن والصناعات الحرفية المختلفة، فغالبا ما يكون تعلمها في الورشات المتنوعة وفي الميدان على يد صناع مهرة، وإذا كان التعليم على هذا المستوى فإن اللغة العربية كانت هي الرائدة والسائدة فيه، في انتشاره وفي رقيه، فالكثير من المصادر تتحدث عن هذا الانتشار في العهد العثماني وعن استعداد الشعب للتعلم وعن حبه للعلم والعلماء والقائمين عليه

فالرحالة المغربي أحمد بن ناصر المغربي يذكر بأن العلم في وقته كان منتشرا في الأصقاع البعيدة من الجزائر مثل أولاد جلال و في عين ماضي التي قال عنها: إن أهلها كلهم طلبة.

والملاحظة الأخرى، فإن طلب العلم في المجتمعات الإسلامية لا يرتبط لا بمكان ولا بزمان ولا تحده سن معينة. فقد يتزوج الشخص وينجب أطفالا، ثم يرحل عنهم رغبة في طلب العلم، ولو كان الانتقال من بلد إلى آخر. فالرسول(ص) يقول: *اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد * اطلبوا العلم ولو بالصين.

فعبد المؤمن بن علي وهو من غرب الجزائر من قبيلة مصمودة كان في رحلة طلبا للعلم قاصدا المدرسة النظامية ببغداد عندما التقى بمحمد تومرت بمنطقة بجاية، بعد أن دار الحديث بينهما وتبينت لهذا الأخير خصال الرجل، عمل محمد تومرت على إقناعه بالعدول عن السفر وإن هناك ما هو أهم فإن وضع المغرب العربي ومعه الأندلس في حاجة ماسة إلى قيام دولة إسلامية قوية تنقذ الإسلام والمسلمين.

أصناف المعلمين:

أ. في المرحلة الابتدائية يسمى مؤدب الصبيان يسهر على تعليم الأطفال إلى سن المراهقة وما هو شائع فيطلق عليه عموما اسم الشيخ أو معلم القرآن.

ب. معلم أو مدرس إذا كان يباشر التعليم من سن المراهقة إلى سن العشرين.

ج. أستاذ أو شيخ إذا كان يدرس ما فوق ذلك من الأعمار والمستويات، يشترط فيه كل شروط وأوصاف يجب توفرها في من يرغب في مهنة التدريس منها: التقى والصلاح والروح الاجتماعية العالية* وقد يشترط فيه الزواج والأخلاق الفاضلة، يؤدي واجباته الدينية من صلاة وصوم وغيرهما..

والمعلم أو الشيخ في الجزائر. خاصة في البوادي والأرياف هو إمامهم في صلواتهم ومفتيهم في شؤونهم ومصالحهم الاجتماعية يلجأ إليه الأفراد والجماعات في أفراحهم وأقراحهم خاصة عندما تستعصى

عليهم بعض الأمور، فيكون المرشد والمصلح وحتى القاضي في بعض الحالات. وباختصار فهو محل ثقة وتقدير واحترام وسط الجماعة التي يعيش بينها.

*ما هي الأسباب والحوافز التي دفعت بالفرد المسلم وجعلته يقبل على تعلم اللغة وتحصيل العلم ؟

إن الحوافز المختلفة التي تحث الأفراد في المجتمعات الإسلامية على طلب العلم وتحصيله، كامنة في الدين الإسلامي نفسه، فالعلم من أساسيات العقيدة الإسلامية، وأن القرآن نزل باللسان العربي المبين إذن لفهم هذا الكتاب وهذه العقيدة فهما سليما وواضحا لابد من إتقان هذه اللغة في قواعدها وأساليبها ومعانيها وفي بيانها. وقد وردت آيات كثيرة وأحاديث نبوية تبين مكانة العلم وفوائده، وحاجات الفرد والمجتمع إليه. أول سورة نزلت من القرآن تطلب من الإنسان القراءة؛ بل لا تقف عند طلب القراءة فقط، فهي توحي له بأن هناك خفايا في هذا العالم المحيط به، لا يصلها إلا بالبحث والاجتهاد، وقد عبر عن هذا بالقلم الذي هو رمز للعلم ووسيلة للعمل العلمي والثقافي، قال تعالى:" اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" (س. العلق من 5/1)

وعن الصفة والمكانة التي ينالها الفرد بالعلم. يقول تعالى:" هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" (س...) والرسول الكريم (ص) يقول لكل شيء طريق وطريق الجنة العلم "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" وهذا ما جعل الفرد المسلم لا تحده سن معينة ولا مكان معين من أجل طلب العلم. ومرتبة العلماء في الدرجات العلى من المجتمع، والعلم في الإسلام، يعتبر الوسيلة الناجعة، لتحرير الإنسان من مخاوفه وعقده، واحباطاته النفسية، فهو يقوي إرادته ويعمل على تفجير الطاقات الكامنة فيه، زيادة على تنوير عقله وتحرير فكره، يجعله يؤمن بأن كل ما في هذا الوجود وهذه الحياة مسخر له وتحت إرادته للانتفاع به إن أراد، يقول عز وجل في سورة لقمان آية 20 "ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة... الخ الآية"

وفي الحديث الشريف" لو تعلقت همة بني آدم بما دون الثريا لوصلها"

هذه القيم مجتمعة هي التي سادت المجتمعات الإسلامية بصفة عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة، استمد منها تكافله وتضامنه وتسامحه وسخاءه عبر تاريخه الطويل وبصفة مختصرة، فإن هذه العوامل وهذه الحوافز، مصدرها ديني كما بينت، العلم عند الفرد المسلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، هو ضياء في المجتمع ونور ينير طريق الناس في حياتهم، يرفع صاحبه إلى الدرجات العليا من التقدير والاحترام.

إذن لا غرابة إذا كان التعليم في الجزائر قد انتشر انتشارا واسعا ترافقه اللغة العربية في رقيها وبيانها، وقد اعترف بها المستدمرون أنفسهم فقال بعضهم إن نسبة المتعلمين في الجزائر أعلى من نسبة المتعلمين في الجيش المحتل.

وقال آخر. إن التعليم كان يشمل جميع أفراد المجتمع، فالمؤرخ الفرنسي موريس بولار maurice paulard يقول في كتابه تعليم الأهالي في الجزائر" كان في الجزائر في القرنين الرابع عشر(14) والخامس عشر (15) الميلاديين مراكز ثقافية باهرة بها أساتذة متخصصون؛ في العلوم الفلسفية والفقهية والنحو والطب..الخ"

ويورد عباس فرحات رحمه الله النسخة المعربة من كتابه "دليل الاستعمار" ص.60 ، ملاحظة أبداها الجنرال الفرنسي "أفيلا" وذلك سنة 1834 م، أي بعد سنتين من دخول الجيوش الاستدمارية إلى الجزائر جاء في هذه الملاحظة ما يلي:

"إن العرب كانوا كلهم يتقنون القراءة والكتابة ، ففي كل قرية توجد مدرسة "

أما عدد المدارس في الجزائر فيناهز الألفي مدرسة، كما كانت بها معاهد وجامعات بالجزائر العاصمة بقسنطينة ومازونة وتلمسان ووهران، وأن التعليم في الزوايا الكبرى كان مزدهرا ومنتشرا عبر القطر كله.

ميشال هابارت Michal Habart في كتابه: تاريخ لمزور، يقول: "في سنة 1830 جميع الجزائريين يعرفون الكتابة والقراءة والحساب. فهم أكثر ثقافة مما كنا نظن، وعند وصولنا وجدنا أكثر من 100 مدرسة ابتدائية بمدينة الجزائر (والبعض يقول 300) و86 بقسنطينة و50 بتلمسان، فمدينة الجزائر وقسنطينة، كان بكل منهما: 7 أو 8 مدارس ثانوية.

هذه الوضعية الثقافية واللغوية للجزائر سنة 1830 م عند دخول الجيوش الاستدمارية إلى بلادنا، واسمح لي أيها القارئ إذا تبنيت مصطلح الاستدمار الذي استنبطه واستعمله المرحوم مولود قاسم نايت بلقاسم حقيقة إن هذا المصطلح في– نظري– يقترب من ترجمة حقيقة الفعل الاستدماري.

– ما يجب ملاحظته وجلب الانتباه إليه أن مجيء الاستدمار إلى بلدنا لم يكن مجرد غزوة عادية للحصول على غنائم محدودة؛ بل خطط لهذا الغزو منذ أمد بعيد، أعد له العدة الكافية... هدفه الأساسي، استمرار العملية التي أنجزوها بالأندلس؛ بل كانت هذه أكثر تصميما واستعدادا. واضعين نصب أعينهم. الإبادة التامة للسكان، سواء كانت الإبادة الجسمية وهي في المقام الأول، والإبادة المعنوية في مرحلة ثانية، وإلحاق هذا الوطن بفرنسا حيث يصبح جزءا لا يتجزأ منها.

وإذا تكلمنا عن الحملة فهي لم تكن متكونة من مجرد عساكر تدربوا على حمل السلاح وخوض المعارك؛ بل اشتملت الحملة على أنواع من الجيوش زيادة عن العسكر جيش من رجال القانون وعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا (الآثار)، ورجال التاريخ ورجال الإعلام ورجال الدين والإستراتيجيين..إلخ. لينجز كل منهم ما يخصه.

نزولهم 1830 شهر جويليا:

نزلوا بسيدي فرج، وبدأت تحركاتهم وعزمهم على إنجاز ما جاءوا من أجله، ومع هذه التحركات تعالت نداءات، بما فيها نداءات رجال الدين كلها تحرض الجيش وتطلب منه العمل على إبادة كل ما يعترض طريقه..

أول قبيلة ابتليت بهذا البلاء، هي قبيلة والعافية بمنطقة الحراش أبادوها عن آخرها، واستولوا على أراضيها التي كانت تقدر بـ 12000 هكم. ونفس العملية تمت بمنطقة البليدة والحجوط وفي جميع المناطق التي وصلوها شرقا وغربا شمالا وجنوبا ما إن سقطت مدينة الجزائر، حتى قام*بولوناك. طالبا من الجنرال دوبورمون قائلا له بأن فرنسا يجب أن تمارس سلطتها على الجزائر كلها.

وفي الرابع عشر(14) من شهر جويليا أصدروا قانونا اشتمل على مادتين:

– المادة الأولى تنص على أن الجزائر ووهران وقسنطينة– وحتى قبل احتلالهما– فإن هذه المدن الثلاث تابعة للأراضي الفرنسية.

– المادة الثانية تنص على أن هذه المدن تكون العمالات الثلاث.

فالمرسوم الملكي لسنة 1834 م يجعل من الجزائر وبدون أدنى رجعة على أنها ملكية فرنسية في إفريقيا... وأن تكون الجزائر وبصفة نهائية محتلة من طرف فرنسا.

وقد صرح الملك أمام وفد من المعمرين زاره قائلا لهذا الوفد يجب عندما نتكلم عن عمالة الجزائر كأننا نتكلم عن عمالة" بوش دي رون".

وفي 8 جويلية يطالب الجنرال دو بورمون بإنشاء مجالس قضائية خاصة، تسمح بالتنفيذ السريع للأحكام والقوانين. لأن طرق تنفيذ القوانين الموجودة في نظرة تتصف بالبطء، يقول عنها إنها علامة ضعفنا. تبعا لهذا الطلب أنشئت ثلاث محاكم عسكرية بالجزائر ووهران وعنابة، فعلت فعلتها في المواطنين. كل يعلم أن مدينة الجزائر سلمت باتفاقية تنص على احترام الأماكن المقدسة، وغيرها. ولم تمر إلا أيام قليلة، حتى بدأت الانتهاكات لهذه الاتفاقية. فمن خمسة آلاف منزل (5000) بالعاصمة، أخد منها (3000) ثلاثة آلاف عن طريق الحجر مع تهديم 900 منزل آخر، كما يقوم الجنرال دوبرمون بإيعاز

لزبنته والسماح لهم بهدم البازارات وتخريبها ونهبها. هذه البازارات التي كانت تشتمل على ورشات النسيج والطرز والصناعات الحريرية، والتي كانت مفخرة مدينة الجزائر وشهرتها، ومورد عيش سكانها، أما عن ضواحي مدينة الجزائر فحدث ولا حرج.

بعد المنازل والبازارات يأتي دور المساجد، رغم العهود المبرمة والتي تنص كلها على احترام الأماكن الدينية المخصصة للعبادة وغيرها، فبعد مرور عامين من الاحتلال حتى كان الحجز قد وقع على اثنين وستين (62) مسجدا، وتعرض عشرة مساجد أخرى للهدم. وفي سنة 1865 م فمن بين مائة واثنين وثلاثين مسجدا كانت بمدينة الجزائر سنة الاحتلال 1830 م، لم يبق منها إلا اثني عشر مكانا للعبادة. أما العدد الآخر فقد كان مصيره التهديم. والتحويل إلى كنائس وأديرة وإلى ثكنات وأماكن للعلاج وحتى إلى اصطبلات للحيوانات وأماكن لراحة الجيش الاستدماري.

ونفس العملية تمت بالمدن الأخرى خاصة الكبيرة منها، على سبيل المثال، فإن مدينة وهران لم يتركوا بها إلا مسجدا واحدا كما تذكر المصادر.

وقد وجه المرسومان المؤرخان في 7 سبتمبر و 9 ديسمبر من سنة 1830 م الضربة القاضية للمؤسسات الدينية والثقافية الإسلامية، حيث تضمنا الاستيلاء على أملاك الوقف والمؤسسات الخيرية. قاطعين كل مورد عن الميدان الديني والعلمي والأعمال الخيرية كلها. من صيانة المساجد والعناية بها وأئمتها، وبالمدارس على جميع أنواعها ومستوياتها: ابتدائي وثانوي وجامعي، بما فيها الأساتذة. وقد كانت موارد الوقف لا تتوقف على صيانة المؤسسات المختلفة، بل كانت تعتني بقنوات صرف المياه، وجلب الصالحة منها للشرب، ودفع منح المحاربين والمرضى واليتامى وفقراء أهل المدينة.

ويذكرها بارت في كتابه السابق الذكر ص 62 أن المدينة بعد هذه العملية عملية الاستيلاء على الوقف، قد تحولت وتحول معها سكانها إلى متسولين يسودهم اليأس والقنوط من جراء ما وصلوا إليه.

قال بعضهم بعد تطبيق هذين المرسومين، إن الماء قد انقطع عن المدينة، مدارسها مغلقة ومعالمها الثقافية– نظرا لنقص صيانتها– تسقط الواحدة تلو الأخرى. بمعنى أن هذين المرسومين كانا كارثة على الثقافة الإسلامية.

وباختصار فقد تابع المستدمرون عمليات السلب والنهب وطرد السكان من أراضيهم. عملا بقول أحدهم الذي قال يجب أن يطرد هؤلاء إلى الجبال وإلى ما وراء الصحراء مثل ما تطرد الوحوش الضارية بالحديد والنار أو بالإبادة الكلية التي كانوا يتنافسون فيها، ويقيمون الحفلات كلما أبادوا قبيلة أو دشرة من المداشر.

استولوا على جل الأراضي الخصبة، ووزعت فيما بعد على شذاذالآفاق الوافدين من أوروبا. وقد كانت قناعاتهم أنه لا يمكن أن يكون استعمار دون الاستيلاء على الأرض، وأن الشروط الأولى لكل استعمار هو نزع الملكية من أهاليها الأصليين.

ففي سنوات قليلة وضعوا أيدهم على ثلاثة (3) ملايين من الهكترات، أخذوا 90 % من سهول الجزائر ووهران وعنابة و95 %من حدائق الكروم والفواكه.

وهكذا سارت عملية تجريد هذا الشعب من كل إمكاناته كي يصبح فقيرا هزيلا لا يقوى على أي شيء يعترض طريقه، استمرت عمليات الإبادة والطرد ونزع الملكية إلى نهاية المقاومات المختلفة؛ بل إلى ما بعدها بطرق أخرى.

يذكر حمدان بن عثمان خوجة أن عدد السكان الذي كان بالجزائر هو عشرة ملايين نسمة 1830 م وفي سنة 1872م أثناء عملية الإحصاء الأولى التي قامت بها فرنسا لم تجد إلا 2100000 نسمة، أي بعد أربعين سنة من الاحتلال انخفض عدد السكان بحوالي ثمانية ملايين نسمة. تساءل المعنيون بالتاريخ والذين أرادوا الوصول إلى حقيقة الأمر (أنظر هابارت المرجع السابق ص 35). ولم يطل بهم الأمد حتى صدقوا ما أدلى به حمدان بن عثمان خوجة، وليس غريبا عندهم إذا نزل عدد السكان إلى هذا المستوى فهم يقرون أن عملية الإبادة هي التي فعلت فعلتها، إذا علمنا أن الضباط السامين في الجيش الفرنسي، كل في المكان الذي يوجد به كانوا يجمعون أفراد القبيلة أو المداشر في أمكنتهم أو يدخلونهم المغارات والكهوف مع حيواناتهم، من أبقار وأحمرة وبغال وأحصنة..وحتى الكلاب والقطط، يطوقونهم بالجنود، ثم يشعلون النيران فيهم وكل من حاول الفرار رمي بالرصاص وكم كانت فرحتهم كبيرة لسماع أصوات الحيوان والبشر ترتفع ويختلط بعضها البعض وهم في نشوة لا مثيل لها، ! وفي آخر كل عملية يقيمون الحفلات والأفراح يراسلون بعضهم مفتخرين بكل ما فعلوه، متنافسين في كل مرة، ومن هو أكثر إبادة من غيره ولما تأكد الباحثون من هذه الأعمال أقروا أن ما قاله حمدان بن عثمان خوجة صواب إذن فعملية الإبادة كانت الأساس في كل هذا. وطبعا لا ينكر الإنسان أثناء هذه الحقبة قد حلت بالسكان مجاعات وأوبئة فتاكة مثل الطاعون وغيره، لم يقدروا على مقاومتها لفقرهم وهزالهم. هذه الفترة والتي تليها تعرض فيها العلماء والمشايخ إلى الظلم والعدوان والتقتيل وغيره مع مضايقتهم من جميع الجوانب، فكانت الهجرة وسيلتهم الوحيدة تركوا مراكزهم ووطنهم توجه أغلبهم إلى ديار الإسلام بالمشرق العربي.

وإذا كانت المرحلة الأولى من نزول الجيوش الاستدمارية إلى نهاية الثورات المختلفة، مرحلة أستعمل فيها السلاح والإبادة الجسمانية. فإن المرحلة التي تلتها كانت أخطر وأفتك، فسح فيها المجال للجيوش الأخرى التي رافقت العساكر من علماء التاريخ وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا (الآثار)، ورجال القانون

ورجال الدين..الخ. كل قام ينجز ما كلف به، فبدأوا بتزوير التاريخ وتحريفه وإحياء النعرات القبلية، عملا بقاعدة " فرق تسود"، هذه النعرات التي قضى عليها الإسلام ودفنتها الطرق الصوفية التي عمت أرجاء الوطن، كانت كلمة الفصل فيها لمشايخها قلنا إلى جانب علماء التاريخ علماء الأنطروبولوجيا الذين قالوا عن المجتمع الجزائري إنه مكون من "موزاييك "وأشتات متنافرة وغير متجانسة ليست من أصل واحد..؟!

أما رجال القانون فكان لهم الدور الكبير في تحطيم البنية التحتية الاجتماعية للشعب الجزائري وتكسير العلاقات التي كانت سائدة بين أفراده، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقانون السيناتوس كنسيليت الصادر في 22أبريل1863والذي أنشئ بموجبه نظام الدوار كان له دور كبير في تشتيت القبائل ووضعها تحت المراقبة المباشرة.

ونظرا لضيق المجال نكتفي بهذه الإشارة المتواضعة، ونرجع إلى الجانب العلمي والثقافي وإلى اللغة العربية وما أصابها من مآسي أثناء الحقبة الاستدمارية.

موقف فرنسا من التعليم بصفة عامة واللغة العربية بصفة خاصة:

أول موقف قامت به سلطة الاستدمار هو الاستيلاء على أملاك الوقف، فقد أصدر الجنرال "دوبورمون" القرارين المذكورين سابقا الأول في سبتمبر والثاني في ديسمبر 1830م كان مضمونهما ينص على حق التصرف في الأملاك الوقفية بالتأجير والكراء والتحويل..إلخ.

لماذا كان حرصهم من البداية الاستحواد على أملاك الوقف، يقول أحد الكتاب المعمرين عن الوقف: "إنه يشكل أحد العوائق التي تحول دون التحويلات الكبرى، التي هي وحدها القادرة على تطور هذا الإقليم الذي أخضعته أسلحتنا وتحويله إلى مستعمرة حقيقة".

قدرت مدا خيل هذا الوقف سنة 1842م من طرف المدير المالي للإدارة الاستدمارية، بما قيمته 903616.98 من الفرنكات، ولم يكن هذا المبلغ يكفي فقط لسد حاجات التعليم في جميع مراحله في هذه الفترة، بل كان يكفي لسد حاجات المجتمع بكامله كما وضحت ذلك سابقا.

ثم شرعت السلطات الاستدمارية، في استبدال التعليم العربي بالتعليم الفرنسي، واللغة العربية باللغة الفرنسية، والتاريخ العربي الإسلامي بالتاريخ الفرنسي، وأننا ننحدر من جنس يسمى" ليغولوا ؟؟" واحتلت المدرسة الفرنسية مكان المدرسة العربية، بعد غلقها وهدمها وتركت الناجي منها تحت رحمة المضايقات والاعتداءات المختلفة والقرارات المجحفة، منها اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية، يجب إبعادها عن الميادين الحيوية لها. ومن أهم هذه القرارات، ذلك القرار الصادر في 1904/12/24م يمنع هذا القرار فتح أي مدرسة إلا بترخيص من عامل العمالة (الوالي حاليا) كما ينص في نفس الوقت على سحب هذه الرخصة

من كل شخص لا يحترم الشروط التي ينص عليها هذا القرار خاصة تلك التي تمنع معلم القرآن من التعرض إلى شرح وتفسير الآيات القرآنية التي تدعو إلى الجهاد.

بعد هذا جاءت المدرسة الفرنسية كوسيلة ناجعة، تقوم بعملية المسخ والتمسيح، وفي النهاية القضاء على الشخصية الوطنية تدريجيا وضعوا مخططا تربويا يتناسب والأهداف البعيدة للاستدمار وإذا وقع خلاف بين المعمرين في قضية تعليم "الأهالي" كما يسمونهم، فالهدف واحد، هو استغلال الفرد الجزائري كل حسب طريقته وفلسفته في الحياة، فريق أراده أن يكون أميا يسهل استغلاله في المزارع وغيرها،وأراده فريق آخر أن يكون فردا طيعا مجردا من كل مقوماته الوطنية، يستغل جسديا وعقليا، بعد تطعيمه بعادات جديدة في التفكير والذوق والسلوك يقول أحد العلماء البارعين في هذا المجال. وهو جورج هاردي" : " إن أحسن وسيلة لتغيير الشعوب البدائية، في مستعمراتنا وجعلها أكثر ولاء وأخلص في خدمتنا لمشاعرنا، هو أننا نقوم بتنشئة أبناء "الأهالي"منذ الطفولة وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدنا، فالمقصود وباختصار، هو أن نفتح بعض المدارس لكي تتكيف فيها عقولهم حسب ما نريده.." (أنظر كتاب" أحمد طالب الإبراهيمي من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية).

هذه هي الفلسفة التعليمية التي انطلق منها الاستعمار وبنى أسس التعليم عليها في الجزائر، غير أن المعمرين أرباب الأرض لم يرضوا أبدا بتعليم أبناء المواطنين، نادوا بهذا في مؤتمرهم المنعقد بتاريخ 29 مارس 1909م، مجمل ما جاء في هذا النداء أن تعليم "الأهالي" سيؤدي إلى خطر محقق: سواء من الناحية الاقتصادية، أم من ناحية التعمير الفرنسي، عبروا في هذا النداء على أن الرغبة الكبيرة لديهم هو إلغاء هذا النوع من التعليم. (أنظر كتاب د.تركي رابح المذكور سابقا ص 131). طبعا التعليم الذي ينادون بإلغائه هو التعليم الموجود في المدرسة الفرنسية، لأن التعليم العربي غير وارد عندهم.

من المتحمسين للتعليم الفرنسي لأبناء الجزائر هو مدير مدرسة المعلمين ببوزريعة، حيث رد على هؤلاء الرافضين لتعليم أبناء الجزائريين، شارحا لهم الأهداف التي ترمي إليها فرنسا من هذا التعليم، قائلا إن نشر التعليم في القبائل هو في مصلحة فرنسا وحدها..إنه من الأهمية بمكان أن يثبت في أذهان الأهالي فكرة رفيعة ونقية عن وطننا بتلقين دروسا تتناسب مع أعمارهم عن عظمة فرنسا وجيشها وثورتها، وليس من الشك في أن مركزنا أقوى تدعيما لو استطعنا أن ندع الأهالي يفكرون من تلقاء أنفسهم وبمحض إرادتهم، ويقولون فيما بينهم، ألا ما أقوى وأكرم الفرنسيين، إن أحسن ما نود أن يكون عليه أساتذتنا.

إن المدرسة" الأهلية" في شكلها الراهن، ليست أداة تجديد خلقي وحسب، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة وسلطان، وستخلق من رعايانا عضدا مفيدا جدا وساعدا قويا لفرنسا"

وفعلا كونوا طوابير من هذا النوع أصبحوا نقمة على وطنهم عبر مراحل تطور المجتمع الجزائري إلى يومنا هذا، نصبوا العداء لمقوماتهم وثوابت أمتهم،رفضوا التاريخ الوطني وتآمروا عليه – والظلم من دوي القربى أدهى وأمر.

أدخلوه كمادة في الدراسة، غير معنية بالامتحانات، وغير مسقطة بل مادة اختيارية في بعض الحالات سواء تلقاها التلميذ أم لم يتلقاها، نصبوا العداء قاوموها ومازالوا يقاومونها، مثل ما قاومها أسيادهم، شككوا أفراد الشعب في كل قضية وطنية قاموا بعملية تقزيم لأمجاد هذا الوطن قديما وحديثا، فالحملة التي شنت ضد رموز الثورة ليست ببعيدة عنا.

وبصفة مختصرة فإن التعليم في العهد الاستدماري: تعليم خاص بأبناء المعمرين يتطابق عليه مع ما هو موجود بفرنسا يتوفر على كل الإمكانيات اللازمة، وتعليم خاص بأبناء "الأهالي" لا تستفيد منه إلا الأقلية القليلة، كان أغلبه في الحواضر أما البوادي والأرياف فقد كان قليلا جدا.

ولم يكن رفض إنشاء المدارس الفرنسية من قبل المعمرين فقط خاصة في الأرياف، فقد رفضه أفراد الشعب لما عرفوا خطورته وأدركوا –أحسن منا– أهداف فرنسا من وراء تعليم أبنائهم وقد عشت أنا شخصيا حادثة من هذا النوع عندما عرض مشروع إنشاء مدرسة فرنسية على أهل دوار في بادئ الأمر وخوفا من قبول الرجال هذا المشروع قامت النساء وأقسمن أن بنيت هذه المدرسة، سيحملن الفؤوس والمعا ويل ويذهبن لهدمها، لأن المدرسة الفرنسية في نظرهم ونظرهن، هي حاملة للكفر لا غير ولا تزال صورة أمي رحمها الله ماثلة أمام عيني وهي ترغي وتزبد رافضة الرفض القاطع لهذه المدرسة وأن أبناءها لن يدخلوها.

وبصفة مختصرة فإن التعليم في الفترة الاستدمارية لم يبلغ مداه ولم يحقق أهدافه كاملة، إذا أخذنا سنة 1944 وبعد مرور أكثر من قرن على الاستدمار كان عدد التلاميذ بالنسبة لأبناء الجزائر لا يتجاوز 13000 بنسبة 8 %. وفي الحقيقة إن نسبة الأمية 1948 بلغت 96% بين الرجال 99% بين النساء.

حاول الجنرال دوقول عندما جاء لإنقاذ فرنسا من الثورة الجزائرية، جاء ومعه مخططه الشهير والمسمى بمشروع قسنطينة وذلك سنة 1958م ظنا منه إن نشط المدرسة ستقضي على الثورة، وتقوم بعزل الشعب عن المجاهدين، جاء هذا المخطط بعد أن وضع الشعب الجزائري بكامله في السجن، حدود الجزائر شرقا وغربا محاطة بالأسلاك الشائكة أحياء بالمدن محاطة بنفس الأسلاك القصبة بالعاصمة كمثال، سجون ومعتقلات، محتشدات وتجمعات. وقد بلغ عدد الأفراد الذين ضمتهم هذه المحتشدات فقط

سنة 1961م 4766 محتشدا عدد الأفراد الذين ضمتهم هذه المحتشدات بلغ 3.826.647 نسمة معنى هذا أنها ضمت كل سكان الأرياف آنذاك.

نرجع الآن إلى اللغة العربية وما جرى لها، فإذا أدخلت إلى المدرسة الفرنسية كمادة بالنسبة لأبناء الجزائريين، فمعاملتها بالمدرسة كانت كلغة أجنبية، وليست وطنية، علموها بالحرف اللاتيني عن طريق المبشرين والآباء البيض، علموها كلغة دارجة وهذا لتساعد من عقد العزم على تشتيت الجزائر إلى طوائف وأقليات، وبهذا قاوموا اللغة العربية الفصحى بكل ما لديهم من قوى ووسائل لأنهم يدركون أهمية اللغة الوطنية في بناء الأفراد ووحدة الشعوب.

قال العلماء المختصون في معرفة دور اللغة بأنها الشخصية وهي الهوية، بل هي صورة وجود الشعوب والأهم بأفكارها ومعانيها.. وجودا متميزا قائما بخصائصه، قال جمال الدين الأفغاني:" لا جامع لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم .."

وتكمن أهمية اللغة العربية في كونها لغة القرآن، ولغة تأدية الشعائر الدينية، ولعل هذا ما أدى ببعض العلماء إلى إصدار فتوى بوجوب تعلم اللغة العربية، لأن فهم القرآن فهما عميقا وصحيحا والوقوف على السنة النبوية وقوفا سليما وبالتالي معرفة الإسلام على حقيقته مرتبط بمعرفة اللغة العربية الخالدة خلود الرسالة المحمدية "إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظ ون" (سورة الحجرات: 9) .

قال أحد المفكرين... من الصعب جد؛ إن لم يكن من المستحيل أن تتحد أمة من الأمم..

وأن تقوى بدون ارتكاز إلى لغة موحدة تجمع بين قلوب أبناء الأمة، وتوحد بين مشاعرهم وعواطفهم ومن ثم تقودهم يد واحدة وقلب واحد ، إلى آمالهم وأهدافهم، وما ذلك إلا لأن اللغة الموحدة تمثل نوعا من التماثل في الرأي والفكر، وضربا من التشابه في السلوك وأساليب العيش.

ولا يسعنا نحن هنا إلا أن نشبه اللغة بالدورة الدموية التي تجعل الانسجام بين أعضاء الجسم، فاللغة هي التي تعمل على تنمية العواطف والمشاعر المشتركة بين أفراد المجتمع، مع صياغة الأفكار والمواقف المتوافقة وبالتالي انسجام أفكار الأفراد مع أنفسهم ومع الآخرين.

فلا غرابة إذا كانت اللغة العربية في الجزائر وإلى يومنا هذا هي الهدف الأول للاستدمار وأتباعه فهو أي الاستدمار.. لم يخلف في الجزائر أفرادا كانوا عضدا مساعدا له فقط كما نتصور، بل كون طابورا منسلخا عن قومه، ممسوخا في أفكاره وتصرفاته، أصبح ينوب عنه في جميع الحالات منفذا لكل عملية أو مؤامرة فشل فيها هو في الماضي، بل هذا الطابور يقوم بإجهاض كل محاولة جادة في إحلال العربية مكانها الشرعي في البلاد.

حارب أفراد هذا الطابور مقومات هذا الشعب وعملوا على زرع الشك في نفوس أفراده، في ثوابتهم وفي أبطالهم عبر تاريخ المقاومة والجهاد، ومازالت الحملات التي وقعت في السنوات الأخيرة والتي كان هدفها تقزيم الثورة وأبطالها ماثلة للعبان. حاول بعضهم نكران الثورة وأنها كانت خطأ جائرا تعتمد على الظلم والإجرام..

وإذا رجعنا إلى ثبات هذه اللغة لغة القرآن، فالفضل أولا وأخيرا يرجع إلى المولى عز وجل الذي ربطها بكتابه الكريم الذي قال عنه: "إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

ثانيا يرجع الفضل كذلك إلى صمود مشايخ الطرق الصوفية بمراكزها الثقافية وعلى رأسها الزوايا رغم المضايقات التي تعرضت لها هذه المراكز، وخاصة بعد أن تيقن المستدمر بأن الثورات المختلفة، كان وراءها رجال الدين فصب عليها جام غضبه جردها من ممتلكاتها ، سلط عليها إرسالياته التبشيرية ورجال المكاتب العربية وأعوانهم، عرض رجالها إلى التقتيل والنفي والسجون وما مثال الشيخ الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الذي رمي به في سجن قسنطينة ثم حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات فمات بعد خمسة أيام من إصدار الحكم على سن تجاوزت التسعين سنة إلا دليلا على ظلم هؤلاء.

قلت سلطت فرنسا على هذه المراكز إرسالياتها محاولة تحويل هذه المراكز إلى مراكز دروشة تعشعش فيها الخرافات كطريق لزرع الشرك في العقيدة الإسلامية، وفد نجحت إلى حد ما في استمالة بعض الضعفاء غير أن الأغلبية منها بقيت صامدة تعلم مبادئ اللغة والدين والفقه والتوحيد أينما كانت في جميع أرجاء الوطن شرقا وغربا شمالا وجنوبا، جاءت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رائدة الإصلاح جاعلة شعارها: الإسلام ديننا والعربية لغتها والجزائر وطننا"، فانضم إليها رواد الإصلاح في كل مكان بما فيها رواد النهضة بمنطقة الميزاب على رأسهم العلامة الشيخ بيوض رحمه الله.

انتشرت مدارسها والتي تجاوزت(600) الست مائة مدرسة زائد نواديها المختلفة والمتنوعة فكان عمل رجالاتها الذين أخلصوا لهذا الدين وهذا الوطن وهذه اللغة الدرع الواقي لأبناء الشعب الجزائري واستعادة اللغة العربية بعض مواقعها الحيوية التي فقدتها في ميدان العلم وغيره.

وإلى جانب مدارس جمعية العلماء مدارس الحركة الوطنية، وإن كانت لم تبلغ مستوى تلك المدارس التي كانت تشرف عليها الجمعية نظرا لاشتغال الحركة بالسياسة بالدرجة الأولى وقد دعمت المدرسة في الميدان بالحركة الكشفية وسواء كانت تلك التي تميل إلى جمعية العلماء أم إلى الحركة الوطنية، فعملها الميداني أعاد حب العربية وحرارتها في النفوس والعقول.

وأملنا في الأخير من المولى عز وجل أن يعيد لهذه اللغة انبعاثها لتقوم بما قامت به في الماضي وأن يلهم مسيري هذه الأمة الفطنة واليقظة ليدركوا وليعوا وليكونوا على بصيرة بأن هذا العالم قد انعدمت فيه الحدود وتقلصت فيه المسافات وعظمت فيه المؤامرات.

والله المستعان وإليه المصير